ينبوع الفن

مسرحية في ثلاثة فصول

بقلم خليل تقي الدين

أشخاص الرواية

الكاتب ـ القلم ـ الورقة البيضاء ـ الدواة

المكان لا يتغير في المشاهد الثلاثة . فهو غرفة المكتب في منزل الكاتب . المسرح متخم بكل منضدة كبيرة عليها ورق أبيض وأقلام ودواة . هنا وهناك كتب كثيرة وصحف ومجلات ، بعضها مرصوف على الرفوف ، وبعضها ملقى على الأرض ، وعلى المقاعد . خزائن تتدلى المكتب منها . مقعد شرقي مستطيل الى جانبه نرجيلة مهملة كأنما متروكة منذ عهد بعيد . الغبار يعلو الأشياء . لا نظام في المكتب ولا ترتيب ، لكن المكان ، مع ذلك ، يصرخ بهذا الاضطراب عبراً عجيباً الى النفوس . على الجدران صور زيتية بغير اطارات من ريشة فنون وفروخ والأنبي المصورون لنا بيروت ، وصورة كاريكاتورية تمثل الكاتب

المشهد الأول

الزمان — الهزيع الأول من الليل

الدواة (للقلم) لم هجرتني ؟ . . . أما ظمئت شفتاك ؟ !

الورقة البيضاء (للقلم) وكيف تجفوني ، أيها الماكر الناسي ؟

القلم أنا أهجر وأجفو ؟ معاذ الله ! لكنه «هو» الذي هجر، و« هو» الذي جفا ! !

الدواة هو ! هو ! دائماً وأبداً هو ! متى تخلع عن عنقك هذا النير ؟ . .

الورقة البيضاء أجل ! متى تتحرر وتحررنا ؟

القلم نحن ؛ بدونه لا شيء : جماد لا حياة فيه !

الدواة لا بل هو بدوننا لا شيء : حيوان ناطق ، لا أكثر ولا أقل ! !

الورقة البيضاء وهو « لولانا » أريج لا يفوح ، ولحن لا يسمع ، وسراب في صحراء !

القلم لكننا لا نحيا إلاّ به .

الدواة وهو ؟ أترى الى هذه الحياة التي يحياها بعيداً عنا ؟

الورقة البيضاء لقد انحط الى مستوى البشر !

الدواة وكان ينا يسمو ، ونحن نسمو به الى ذرى الآلهة !

الورقة البيضاء كنا نبني له المجد ، وهي البقاء

الدواة ونضفر لجبينه أكاليل الخلود

القلم وما يمنيه من البقاء والمجد والخلود ، وقد دانت له الحياة ، ومنحته نعمة الحب كنزها الأكبر ؟ !

الدواة إنه إذن يضحي بنا على مذبح الحب ، وينسانا بين الشفاه الغسولة ، والعيون النجلاء ؟

الورقة البيضاء وتدافع بعد ذلك عنهُ ؟

القلم واحسرتاه ! كنت قصبة جوفاء ، فصرت بين أنامله ، حيًّا ، بل خالقاً يبدع الحياة . فكيف أنكره ؟

الدواة ومن أرادك على انكاره ؟ لكن أنذا هجرك هو ، وجفاك ، هجرنا أنت ، وتجفو ؟ ؟

الورقة البيضاء وتنظر اليّ فلا تشفق على عريي ؟

القلم وحق الألف والباء ، إن بي لشوقاً عنيفاً الى عناقك أيتها الحبيبة البيضاء . ولكن ، ما حيلتي وهو يطيل الهجران ؟

الدواة وأنا ؟ أتراك نسيتني أيها الجاحد ؟

القلم وكيف أنساك ، وبي ظمأ قاتل الى نقطة من ينبوعك الأزرق ؟

الدواة فلامَ لا تأتيني إذن ؟

الورقة البيضاء ولا تكسو عريي بالكلم الخالد ؟

القلم مهلاً ! فهذه ساعته الكبرى ، ولا بدّ أنه آت ، فقد هيّأ لهُ الليل الجو الذي يحب . سيجذبه السكون الينا كما كان في ماضيات الأيام

الدواة كان ذلك بالأمس ، وارحمتاه على الأمس البعيد !

الورقة البيضاء يوم كان يدلف اليّ خفيف الخطى كما يدلف العاشق الى معشوقه ، فاذا داعبتني يداه ، بعثت فيّ لمساته لذة راعشة ، ودغدغ صفحة خدي فمانه الحارّ ، يوم ينحني عليّ احتضاء الحبيب على الحبيب

الدواة ويذيب في قلبي عصارة قلبه !

القلم ونأخذ جميعاً في الخلق والابداع . . .

الورقة البيضاء فاذا صحرائي واحة خضراء ، وسمائي جنى وماء ، وجدبي خصب ، وعريي كساء !

الدواة وإذا كل قطرة من ينبوعي فكرة رائعة « وصورة حية » وعاطفة نابضة

القلم وإذا نحن في عرس دائم مع البشر المبدع الخلاق

الدواة عمده ليطبع الزمان بالطابع الذي لا يمحى ولا يزول

الورقة البيضاء طابع الفن وميسمه الأكبر

الدواة لكن الليل قد انتصف أو كاد وهو لا يأتي

الورقة البيضاء شأنه منذ شهور

الدواة ونحن ، في انتظاره ، نتحرّق ، ونفنى ، ونذوب

الورقة البيضاء ويترامى علينا غبار النسيان

القلم وكأن توالي الأيام يسلّمنا الحياة ليعيدنا ، كما كنا ، جماداً بغير حياة !

الدواة لا بد من حيلة نردّه بها إلينا

الورقة البيضاء لا بل نرده بها الى نفسه

القلم ولمَ لا تقولان نرده الى الأجيال ؟

الدواة أحسّ أنني هرمت منذ هجرني ، وأن عروقي جفّت ، وغاض في قلبي ماء الحياة

الورقة البيضاء فاذا يحل بنا إذا طال به الهجران ؟

الدواة رباه ؟ وماذا يحل به ؟ ...

القلم يظل واحداً في القطيع . فكرة تحمل اسماً ، وتعيش عمراً ، ثم تمضي كأن لم تكن ، كما تعيش وتموت الحشرات . فأما أنت فتعودين زجاجة فرغة ، تلقى في الطريق ، وأنت مرة صغيرة لشيء حقير ، وأما أنا فأعود قصبة جوفاء تلقى في النار ، أو تدوسها الاقدام

الدواة ربك جنبنا وجنبه هذه النهاية المروّعة

القلم لا بدّ من أن أقتني أثره وآتيكما بالخبر اليقين ، ثم نرى في أمرنا

الدواة إنها لفكرة رائعة . ولكن أتقوى على اللحاق به ؟

القلم سأندس في جيبة ، على سابق عهدي به ، يوم كان مقامي فوق قلبه

الدواة يالك من قلم مجدود !

الورقة البيضاء ليتني كنت مكانك !

الستار

المشهد الثاني

الزمان — بين دبيب العتمة وانطفاء النور

القلم وارحتاه لنا ! واشباباه ! (يجهش بالبكاء)

الدواة إنك تخيفني !

الورقة البيضاء وتبعث الرعشة في جسدي

القلم الويل لنا مما ينتظرنا !

الدواة ما لك تتكلم بالألغاز ؟ ألا تريد أن تهدأ وتحدثنا عما رأيت وسمعت ؟

القلم ماذا تريدين أن أقول ؟ حسبك أن تعلمي أنهُ لن يعود . لن يأتي . لن يأتي أبداً . أيكفيك هذا ؟ !

الدواة (بتحسر) يا ضيعة شبابي ! أيها اليتوع المتفجر من صدري لم يبق لك إلاّ أن تغور . قبلني يا حبيبي قبلة الوداع فقد دنت نهايتي ودقّت ساعة الفراق

الورقة البيضاء لقد هبّت عليَّ لفحة موت . وإني لأحس سمّه في حلقي

الدواة ولكن ألا حدثتني الحديث كله ؟

القلم إن صاحبنا عاشق متيّم . فلا عجب إذا نمي ساعته الكبرى ، فساعات حياته كلها عامرة بالحب

الدواة عرفت ، إذن فلماذا يخلف مواعيده معنا ؟

القلم أجل ! لان له كل ليلة موعداً أحب إليه وأشهى !

الورقة البيضاء مع التي يهوى ؟

القلم نعم . « وهو » إلى الآن ، عاشق محظوظ . كنا لقبها حدثها حديثاً متصلاً لا نهاية له ، كبعض ما نحس من كلام

الدواة وهي : ماذا تقول له ؟

القلم تتدلل فهي ، ككل الحسان من بنات جنسها ، لعوب إلى حد كبير

الورقة البيضاء وهل تبادله حبًّا بحب ، أم تراها تهزأ به ؟

القلم ليتها صدّته وداست قلبه بقدميها . لكنها تفرض سلطانها عليه ، وتُحكم ، شيئاً فشيئاً ، وضع النير في عنقه

الدواة وهل هي جميلة ؟

القلم (للدواة) لها عينان أصفى من ينبوعك !

الورقة البيضاء لشدّ ما تبالغ !

القلم (للورقة) . . . وشفتان أرقّ منك !

الدواة أكل . أكل . ولماذا لا تقول : وقدٍّ كقدّك الخيزراني أيها الفاجر ، ما دمت أنت أيضاً قد أخذت بصفاء عينيها ورقة شفتيها !

الورقة البيضاء تبًّا لك من زير نساء ! لست خيراً من الرجال

القلم لِمَ تقلقينني ؟ أنا ، إذا شئت ، زير ورقة ودواة . أما النساء فصاحبنا أدرى بهنّ

الدواة ولكنك لم تقل لي بعد هل تحبهُ هذه الفاجرة ؟

القلم يخيل إليّ أنها تحبهُ ، أو هي منجذبة إليه بفضل ما بنيناه له نحن ، سمعتها أمس تغني له مقاطع من شعره ، فراح في نشوة من الطرب ، ثم أكبّ على يديها يوسعهما تقبيلاً ، وهي تضحك وتغني وتبعده عنها بتراخٍ . .

الورقة البيضاء يخيّل إليّ أنها لا تمنع عنهُ شيئاً وهذا ما يخيفني

القلم كلاّ كلاّ . إنها بعد ، لم تستسلم اليه ، ولكنني أخشى . إنها على أهبّة أن تفعل

الدواة يجب أن نحول بيننا وبينها ! يجب أن نجنبه هذه النهاية المحزنة حتى يعود إليها مبدعاً بعد أن صار بشراً حقيراً !

القلم وأعجب ما في الأمر أنها لا تفتأ تسأله لماذا سكت حتى كاد ينساه الناس

الدواة إنها لا تخلو من الفطنة والذكاء . لكن أذكى النساء أكثرهن خطراً

القلم قالت لهُ : ألم أوحِ اليك بشيء ؟ إنك لا تحبني إذن !

الورقة البيضاء وما كان جوابه ؟

القلم جوابه ؟ ... دعي الأدب والشعر فهما وهمٌ ، وأنتِ الحقيقة . إن في عينيكِ من الشعر ما لم يحلم به الأولون ولا الآخرون ، وفي فمكِ من العذوبة ما لم تتطور على مثله ألحان الموسيقيين . . . بهذا ، وبمثل هذا كان يجيبها ، وهو مدله نشوان

الدواة الآن عرفت لماذا يجفونا !

القلم لأنهُ سعيد . أو يخيل إليه أنهُ سعيد . هكذا خلقوا ! إنهم لا يذكروننا ما دامت كؤوس اللذة مترعة في أيديهم ، فاذا تحطمت ألهب الشقاء نفوسهم ولسع الألم قلوبهم فلاذوا بنا يغنون ، ويكون ، وتفحوا الأجيال بخلدات أكبادهم قطعاً وآيات مكتوبة بنجيع الفؤاد ، هي وحدها التي تبقى ، وبها وحدها يخلدون

الدواة كل أملنا إذن أن يشقى ؟ !

القلم أجل ؛ وأن يعاني ألماً عظيماً . الناس مدينون للألم بكل رائع ، وبكل سام ، وبكل جميل ! ولولا الألم لما كان شعر ، ولا موسيقى ، ولا نقش ، ولا تصوير !

الورقة البيضاء تبارك الألم إن ردَّ صاحبي إليَّ !

القلم اسمعي : جميع الخالدين من أبناء الفن أحبّوا . وجميعهم أحبوا حبّاً عظيماً . وهم لم يخلدوا إلاَّ لأنهم تعذبوا في حبهم

فتسنى لهم أن ينعموا بنعمة الألم الأكبر

الدواة ينبوع الفن !

القلم هذه قسمتهم . إنهم لا يحسنون الغناء ، ولا يبدعون إلا إذا غمرهم اليأس والشقاء

الدواة أتراهم في هذه الحالة يستغنون عني ؟

القلم أجل ! لأنهم ينعسون أقلامهم في نجيع الفؤاد !

الورقة البيضاء وما يدريك ان صاحبنا لا يشاقنا في غمرة السعادة هذه ، أو يحس الحاجة الينا ؟

الدواة أجل ! ليغني نشيد النعيم كما ينشد غيره لحن الشقاء ، سواء بسواء !

الورقة البيضاء أليست اللذة الكبرى كالألم الأكبر ، مهازاً للعبقرية ؟

القلم كلا ثم كلا ! إنهم لا يبدعون إلا إذا تعذبوا . ألم تسمعي بالمجنون ، مجنون ليلى ؟

الورقة البيضاء بلى ! حدثتني عنهُ جدتي

القلم أكان هنالك مجنون ليلى ، لو زفت اليهِ ليلى ؟

الدواة من يدري ؟

القلم كانا يصبحان زوجين حقيرين في خيمة ضائعة في الصحراء ، يرعيان الغنم ، وينسلان الأولاد

الورقة البيضاء وهما اليوم ...

القلم خالدان في جملة الخالدين

الدواة وغداً ؟

القلم كذلك . لا أمس للخالدين ولا غد . إنهم أسمى من أن يحدهم زمان

الدواة وتريد أن تزج صاحبنا بينهم ؟

القلم ولِمَ لا ؟ على شريطة أن أشقيه

الدواة لكنه يبيع البقاء والخلود بساعة معها

القلم لأنهُ بشر أحمق . وزيده على أن يكون نصف إلـه !

الدواة وعلامَ عزمت إذن ؟

القلم دعني أقص عليك تتمة الحديث . لقد ضرب لها أمس موعداً بلقائها فيه

الدواة متى ؟ وأين ؟

القلم هنا ، غداة غد ، في مثل هذه الساعة ، بين دبيب العتمة وانطفاء النور ؛ وعند ما فارقها راح يطوّف في الشوارع ويهذي كالمجنون ، ويردد : غداً ! غداً ! واطول شوق المستهام الى غد ! وأكبر ظني أن موعد الغد موعد عظيم ! وظل يسير على غير هدى حتى قادته رجلاه الى الشاطىء ففتح ذراعيه للبحر وأخذ يصرخ بصوت طال كأنه يناديها من بعيد : تعالي إليّ ، فؤادي يناديك في هدأة الليل ، هل تسمعين . . . ثم صاح : تعالي ، تعالي ، تعالي كررها عشرات المرات . . . حتى إذا أتعبه النداء ترنم بالبيت الخالد :

فد يهون العمر إلاّ ساعة وتهون الأرض إلاّ موضعا

الدواة بيت شوقي الذي يفضله على سائر ما نظم الشعراء من أبيات

القلم كما يفضل قائله على سائر الشعراء . وظل يغني بصوته العريض

الدواة ماذا ؟ هو يغني ؟ . . .

القلم وماذا عليه إن غنى وسامعوه البحر والأمواج والصخور ؟

الورقة البيضاء وأنت . . .

الدواة لقد كان الخائن معها قبل هنيهة ، فهل اشتاقها بمثل هذه السرعة ، حتى يحن اليها هذا الحنين ؟

القلم إذا لم أخلف وعدي كان غد يوماً فاصلاً

الدواة لا بد من عمل حاسم

الورقة البيضاء يجب أن ننقذه من الهوة الفاغرة فاها تحت قدميه ، وننقذ أنفسنا من موت محتم

القلم وردّه الى من خلق لهم وخلقوا له من دون الناس أجمعين ومن دون سائر الكائنات : إنا نحن

الدواة بناة اسمه ومجده وخلوده

الورقة البيضاء وماذا ترين ؟

القلم سأجرح قلبه بيدي حتى تتفجر منه الدماء ، فيعود الينا !

الورقة البيضاء واشوقي اليه ! إنهُ لا يعرف التعلق الاّ على صدري ؟

الدواة ولا يعرف الاعماق إلاّ في دعي

القلم ولا يسمو إلاّ بي

الدواة ولكن أخاف إن هدمت حبه أن ينتقم منا

القلم كيف ؟

الدواة إذا لجّ به اليأس أغرقه في الكؤوس ، وجذبته الموائد الخضراء فكنا حفاري قبره بدلاً من أن نكون بناة مجده

القلم كلاّ كلاّ أنا أدرى به منك ، فلا تخافي . إن فيه شعلة العبقرية فهو إنسان موهوب . ولهذا الفريق المختار من الناس أقوى من الخمر ومن المائدة الخضراء ، ومن المرأة نفسها ! نحن الملجأ الأكبر والملاذ الأخير ، ولا غنى له عنا

الدواة وماذا أنت فاعل ؟

القلم سأنفذ خطة عبقرية أستوحيها من موعد الغد . سأكتب اليها رسالة مغفلة أن سر موعدها لم يبق سرّاً . فقد فضحه صاحبنا وفاخر به وتباهى بين جمع من خلانه .

الورقة البيضاء يا لك من مغامر جريء !

القلم لا يقدم على المغانم إلاّ المغامرون !

الدواة واذا لم تصدقك ؟

القلم وكيف لا تصدقني وموعدها سرٌّ من الأسرار ؟ فاذا كان لها بقية من كبرياء أحجمت ، ثم انقلب حبها بغضاً لمن عبث باسمها وبحبها ، وأنا لها بالمرصاد

الدواة وماذا علينا أن نفعل ؟

القلم نعيناني على الكتابة

الورقة البيضاء أنت ؟ ! تكتب وحدك ؟ !

القلم صمتاً ، لولا حاجتي اليك لمزقتك شر ممزق ! كيف لا أكتب وأنا القلم ؟

الدواة إذن هاك قلمي فاغرف منه ما تشاء

الورقة البيضاء وهاك خدي فاكتب بما تريد

الستار

المشهد الثالث

الزمان — قبيل منتصف الليل

الدواة ما له زائغ النظرات كأن به مسًّا من الجنون ؟

الورقة البيضاء لقد قضينا عليه ، ودسسنا قلبه ، وخطفنا حبه ولم نفقد شيئاً

القلم مهلاً فلا بد من أن يعود !

الدواة وأينه أمس يجهش بالبكاء وينتحب كثكلى فقدت وحيدها

القلم إنهُ أنحف من الثكالى

الورقة البيضاء ألم يحاول ان يتصل بها ؟

القلم بلى ، لكنهُ كان يقابل بالإعراض من جانب خدمها ، وبالصمت المستمر من جانبها هي

الدواة إذا استمرَّ على هذه الحال فقد عقله

القلم لا تخافي ، إنهُ لا يزال تحت تأثير الصدمة الأولى ، ولا بد أن يثوب إلى رشده ، حين يصبح هواه ذكرى ، وخيالا

الدواة وعندها

القلم يأتي دورنا نحن ...

الورقة البيضاء خيل إليَّ أمس أنني أسمع وقع خطاه . والواقع أنهُ اقترب مني ، ولكنهُ لم يلبث أن انفجر بكلام غير مفهوم

القلم كانت الصدمة أليمة بقدر ما كانت آماله كبيرة وشوقه اليها عنيفاً

الدواة لقد أحكمت تسديد السهم

القلم وكانت إصابتي جد موفقة . لقد طعنتها في الصميم . فانقلب حبها الى كراهية شديدة ، وحقد لا يحسنه إلاّ النساء

الدواة وأصبت عصفورين بحجر واحد

القلم جازفنا بكل شيء ، ولعبنا لعبة الموت والحياة

الدواة وهل تعتقد أننا فائزون ؟

القلم كل الاعتقاد . لا بل ان بي مثل اليقين أنهُ آتٍ عما قريب . ألم تري كيف دخل علينا أمس ؟

الدواة لكنهُ لم يلبث أن خرج الى العراء

(يسمع وقع خطوات في الخارج ، فتطفأ الانوار ، ويسدل الستار هنيهة ثم يرتفع ! (فاذا القلم والورقة والدواة قد تراءيت كأشخاص وعادت جاداً يسيطر عليه الكاتب)

الكاتب (مكباً على المنضدة يكتب في حمى الوحي برهة من الزمن ، ثم يمالك القلم من يده ويحدق الى الورقة وقد كستها السطور وينشد بصوت حنون ، خارج من أعماق أعماقه)

يا فؤادي أقصر ! فهذا غرامي قد تلاشى وهذه أحلامي ...
كغيوم مجنونة شاردات تتبارى في أفقها المترامي

قد خلعت الشباب عن منكبي العاني وما زلت في ضحى أيامي
أقطع العمر منهما يقطع الليل شقيّ أعدّ للإعدام

يا فؤادي خذلتني في غرامي وحرمت الجنات من أحلامي
وعزائي الذكرى وربّ عزاء كان للنفس باعث الآلام
كلما رنّت القوافي بأذنيّ رأيت الماضي القريب أمامي
خلق الشعر للحنين وعندي نغم اليأس أعذب الأنغام
وقعتهُ نفسي وغنتهُ أشعاري وأملاه في الشقاء غرامي
كل بيت أدير به في قصيدي قطعة من صميم قلبي الدامي ..

(يكب الكاتب على المنضدة ويروح في سبات عميق ، كأنه محلم)
(الاعصاب من سير الحياتي ، لتعود الا شياء حياة الاشخاص)

القلم أوأيتها ؟

الدواة وافرحتاه ، عاد الينا ، وعادت معهُ الحياة !

الورقة البيضاء ولعمت بلامسة يديه ، ودفء لمانه !

القلم (للدواة) لقد روّيت شفتي من ينبوعك العذب

الدواة لا أبعدك الله عني يا حبيبي

القلم (للورقة) وطبعت على خدك الأملس قبلة ما كان أشوقني اليها !

الورقة البيضاء ما رأيك في ثوبي هذا ؟

القلم إنهُ لطرفة رائعة . ولكن انجدي فها هوذا يتحرك !

(يتململ الكاتب ثم يفيق شيئاً فشيئاً فتبدو عيناه مفرحتين ، ثم يتأمل الابيات ؛)
(ويأخذ ورقة جديدة ويشرع في الكتابة برهة حتى اذا انتهى قرأ فيما بينه وبين نفسه)

الكاتب إليكِ يا قلب دماً فان التي صيدتها قد طواها الأمس القريب !
ويا عينيّ الطفئا فلن تقعا بعد اليوم على محيّاها الصبيح !
ويا شبابي اذبل قبل أوانك فقد كبرت مائة عام في عشرة أيام
ربّاه ! لو كنت أدري لماذا أعرضت بعد إقبال ، وسخطت بعد رضاء ، وانحت من حياتي ، كما يغيب نجم شعّ هنيهةً في سمائي فأنار ظلمة حياتي كلها
رحماك ، حبيبتي ، سأظل أناديك ، وأغنيك ، وأخاطبك ، حتى تأتي إليّ ، أو تأتيني الراحة الكبرى ، فأنحدر الى رمسي وعلى شفتي اسمك المعبود ! !

(يخرج الكاتب من الغرفة تحني الظهر ، تنين الخطى ، كأنه في السبعين من عمره)

الدواة رباه ، ما أشد حزنه ؟

القلم لقد بدأ يحس وخز الألم الاكبر ، وما هذه إلاّ البداية

الورقة البيضاء وعاد معنا سيرته الاولى فأصبحنا في عرس دائم ..

القلم أجل ؟ نحن في عرس ، ما دام قلبه في مأتم .

بعقلين — لبنان —